٦

دَعاوَى المستَشْرِقين حَوْل شُّبهة الوثنيَّة في شعائر الحَجّ

عَرضٌ ونَقدٌ

مها بنت جريس الجريس

الأستاذ المشارك بقسم الثقافة الإسلامية –كلية الشريعة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

حصلت على الماجستير من كلية الإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحة: (سياسات التحرير في المجلات الإسلامية النسائية ودورها في تعزيز الهوية).

وحصلت على الدكتوراه في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحة: (التحولات الثقافية في عصر النظام العالمي الجديد دراسة نقدية في ضوء الإسلام).

E : maha.aljerais@gmail.com

الملخص

موضوع البحث: دعاوَى المستشرقين حول شُبهة الوثنيَّة في شعائر الحج: عرضٌ ونقدٌ.

أهداف البحث: يهدف هذا البحث إلى تحقيق ثبوت دعوى الوثنيَّة في الحج، في أقوال بعض المستشرقين من مصادرها الرئيسة، ونقدها من عِدّة وجوه؛ لإثبات ضعفها، وتناقضها، مع إبراز عدد من الأقوال الـمُنصِفة من بعض المستشرقين ممن يوصَفون بالاعتدال، حول نقاء الحج، وظهور معنى التوحيد فيه.

منهج البحث: استخدم الباحث كل من: المنهج التحليلي المتضمِّن تحليل هذه الدعاوى، ونقدها. وكذلك المنهج الاستقرائي، بتتبع واستقراء معاني التوحيد في شعائر الحج، وإثبات الفرق بينها وبين الوثنيَّة.

أهم النتائج: تم التوصُّل إلى ثبوت هذه الدعاوى في كل من دائرة المعارف الإسلامية، ودائرة المعارف البريطانية، وبعض كُتب كبار المستشرقين، وتم التوصُّل إلى نقض هذه الدعاوى من خلال أربعة أسس، هي الأساس العقدي، والعقلي، والتاريخي، والمنهجي، كما تم تفنيد هذه الدعاوى بذكر أقوالٍ أخرى من بعض المستشرقين الموصوفين بالاعتدال حول نقاء رسالة الحج من الشرك والوثنيّات.

أهم التوصيات: توجيه الباحثين إلى بيان الأحكام الشرعية والعَقَدِية على وجه الخصوص في إطار ثقافيّ معاصر، وبذل المزيد من العناية بكشف المغالطات المنهجية في الاستدلال واتخاذ المواقف وبناء الأفكار إجمالًا، لتكون مرحلةً سابقةً لتصحيح الكثير من الشُّبهات.

الكلمات المفتاحية: الحج – الوثنيَّة – الشُّبهات – المستشرقون.

Orientalists claims of an Idolatry suspicion related to Islamic pilgrimage rites and ceremonies (Presentation and Criticism)

Dr. Maha Jerais Aljerais

Abstract

Topic of scientific research : Orientalists claims of an Idolatry suspicion related to Islamic pilgrimage rites and ceremonies- presentation and criticism

Research objectives : this research aims to investigate proved claim of idolatryin Islamic pilgrim in statements of some of orientalists which are taken from its main sources, and to criticize it in many ways, prove its weakness and its contradictory , however also will highlight number of fair statements mentioned by other orientalists who described with their moderation about purity of Islamic pilgrim, and displaying meaning of monotheism

Research method : Researcher uses each of : analytical approach which includes analyzing these claims, criticizing, and inductive approach by tracking and reciting monotheism meanings in rites of pilgrimage and proving difference between them and Idolatry.

Main findings : These claims found approved in Encyclopedia Of Islam - Encyclopedia Britannica and some of famous orientalists and

these claims were refuted by four basis, belief, mental , historical, and methodology, also these were refuted by mentioning other statements by some of Orientalists who described with their moderation about clarity of Islamic pilgrim' message from polytheism and pagans .

Most Important Recommendations: guiding researchers to legal provisions and belief provisions' statement particularly, In a contemporary cultural context, and to pay more attention to reveal of methodological fallacies in reasoning, taking positions and constructing ideas in general, to correct a lot of suspicions

Key words: pilgrim- Pagan- suspicions – Orientalists

المقدمة

وردت الكثير من الشُّبهات في كتابات المستشرقين حول شعائر الإسلام، وقد تكون شعيرة الحج من أكثر الشعائر تعرُّضًا للانتقاد، ورمْيًا بالشُّبهات، حيث تنوَّعت تلك الشُّبهات من حيث محتواها؛ فبعضها تنسِب له الوثنيَّة، وأخرى تنسب له الدَّمَويَّة، وثالثةٌ تثير الشُّبهات حول الأجر المنوط به، مقارنةً ببقية شعائر الإسلام، ومن أعظم هذه الشُّبهات وأكثرها إثارة للجدل؛ شبهة الوثنيَّة، حيث قد تلتبَس على بعض العوام، ومحدودِي العلم، ولهذا اخترتُ أن يكون عنوان هذا البحث: (دعاوى المستشرقين حول شُبهة الوثنيَّة في شعائر الحج: عرضٌ ونقد).

مشكلة البحث:

يزعم بعض المستشرقين أن في شعائر الحج وثنيَّة؛ فالوثنيَّة هي تعظيم الأحجار وتقديسها وتقديم القرابين لها، وما الحجُّ -بزعمهم- إلا ذلك: فهو طوافٌ حول حجر (الكعبة)، وسعيٌ بين حجَرَيْن (الصفا والمروة)، وتقبيلٌ لحجر (الحجر الأسود)، ووقوفٌ على حجر (جبل عرفات)، ورميُ حجرٍ بحجرٍ (رمي الجمرات) فيقولون: إن الإسلام قد أبطل الوثنيَّة بشكلها المعهود في الجاهلية، ولكنه جاء بوثنيَّةٍ أخرى، وقد ساهم في رواج هذه الشُّبهة نسبتها إلى بعض كبار المستشرقين، ممن يوصَفون بالاعتدال، وورودها في أشهر الموسوعات.

أهمية البحث وأسباب اختياره:

١. تعلُّق هذه الشُّبهة بشَعِيرة الحج، ورسالته للعالم أجمع.

٢. نسبتها إلى بعض كبار المستشرقين المعتدِلين، وورودها في أشهر الموسوعات.

٣. رواج هذه الشُّبهة على ضعاف النفوس، وإثارتها للتَّساؤل عند بعض العوام.

حدود البحث:

الحدود الموضوعية: شُبُهات المستشرقين حول وثنيَّة بعض شعائر الحج،

وتحديدًا تلك الشُّبهات الواردة في دائرة المعارف الإسلامية، ودائرة المعارف البريطانية، وبعض كتب كبار محرِّريها، مما له صِلةٌ بموضوع البحث.

أهداف البحث:

١. تحقيق ثبوت نماذج من هذه الدَّعاوى في أقوال المستشرقين من مصادرها الرئيسة.

٢. نقد هذه الدعاوى، لإثبات ضعفها وتناقضها.

٣. إبراز الأقوال المنصِفَة بنقاء الحج، وظهور معنى التوحيد فيه من بعض المستشرقين ممَّن يوصَفون بالاعتدال.

منهج البحث:

اقتضت طبيعة البحث اتّباع عدد من المناهج كالتالي:

١. المنهج التحليليّ: المتضمِّن تحليل هذه الدعاوى، ونقدها.

٢. المنهج الاستقرائيّ: بتتبُّع واستقراء معاني التوحيد في شعائر الحج، وإثبات الفرق بينها وبين الوثنيَّة.

الدراسات السابقة:

بعد الاطلاع على عدد من المصادر، والمكتبات العلمية، ومحرِّكات البحث، ظهر أن مُجمل الدراسات السابقة تهتمّ بنقد شُبُهات الاستشراق حول دين الإسلام بشكل عام، كما وجدت دراسات عن الشُّبهات المثارة حول العبادات في الإسلام ومنها:

- **موقف المستشرقين من العبادات في الإسلام من خلال دائرة المعارف الإسلامية**، سنة ١٤٢٤هـ، قسم الاستشراق بكلية الدعوة بالمدينة المنورة، للباحث: محمد بن سعيد السرحاني، وقد تناول فيها الحج في أحد فصوله، مقسِّمًا إياه على حسب الشعائر، ومناقشًا ما قيل في كل شعيرةٍ من حيث الأصل، والتاريخ، ومشابهة اليهود، والنصارى. **والفرق بينها وبين هذا البحث ما يلي:**

١. اقتصار تلك الدراسة على ما ورد في دائرة المعارف الإسلامية، بينما تناول هذا البحث ما ورد فيها، وما ورد في دائرة المعارف البريطانية، وبعض الكتب الأخرى.

٢. أن تلك الدراسة شملت جميع العبادات، بينما يقتصر هذا البحث على ما ورد حول شبهة الوثنيَّة في الحج خاصة.

تقسيمات البحث:

اشتملت هذه الدراسة على مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهرس، كما يلي:

المقدمة وتشتمل على:

- مشكلة البحث.
- أهميته وأسباب اختياره.
- حدود البحث.
- أهداف البحث.
- منهج البحث.
- الدراسات السابقة.

المبحث الأول: بعض دعاوى المستشرقين حول الوثنيَّة في شعائر الحج.

المبحث الثاني: أُسُس نقض دعاوى الوثنيَّة في شعائر الحج وهي:

١. الأساس العقدي.
٢. الأساس العقلي.
٣. الأساس التاريخي.
٤. الأساس المنهجي.

المبحث الثالث: أقوال المنصفين من المستشرقين، في نقاء رسالة الحج التوحيدية من مظاهر الوثنيَّة المُدَّعاة.

- **الخاتمة.**
- **فهرس المصادر والمراجع.**

المبحث الأول

بعض دعاوَى المستشرقين حَول الوثنيَّة في شعائر الحَجّ

زعم المستشرقون بوجود الوثنيَّة في شعائر الحج، وقد اكتسبت هذه الشُّبهة رواجًا لورودها في كل من دائرة المعارف الإسلامية، ودائرة المعارف البريطانية[(١)]، وهي من المراجع الرئيسَة للباحثين الغربيِّين[(٢)]، إضافة إلى أنها صدرت من بعض كبار محرِّري هاتَيْن الموسوعتَيْن، الذين ربما يصنِّفهم البعض من المستشرقين المعتدلين[(٣)]!

وقبل إيراد تلك الدعاوى، يَحسُنُ البدء **بتعريف الوثنيَّة**؛ فالوثنيَّة مصدرٌ صناعيٌّ من وَثَن وتعني: مذهب عبادة الأوثان[(٤)].

والوَثَن في اللغة: واحد الأوثان، وهو في القرآن وصفٌ لحجارةٍ كانت تُعبد، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: ٢٥]. ولأصله الثلاثي في اللُّغة معنَيان:

- الأول: الكَثْرة، والعطاء، يُقال: أوْثَنتُ فلانًا: أجْزَلت عَطِيَّته، وأوْثَنتُ من كذا: أكثرتُ منه.
- والثاني: الثبات، والاستقرار، يُقال: وثَن الحَجَرُ بالمكان: أقام به وثبَت، ووثَنَ الشيء إذا بَقِي[(٥)].

(١) انظر: دائرة المعارف الإسلامية (٦/ ٢٦٧)، و(٧/ ١٠٣) ودائرة المعارف البريطانية (فصل النبي محمد ورسالته).

(٢) انظر: دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية: أضاليل وأباطيل، د. إبراهيم عوض (ص٥). وانظر: السيرة النبوية في دائرة المعارف البريطانية: دراسة تحليلية لما كُتِب تحت مادة النبي محمد ورسالته، د. وليد العمري (ص٣-٥).

(٣) من أمثال: المستشرق الهولندي فنسنك، وهنري ماسيه، وسيأتي توثيق أقوالهما والترجمة لهما.

(٤) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (٢/ ١٠٢٣).

(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور (٥/ ٧٨٣)، والقاموس المحيط، الفيروز أبادي (٦/ ٢٧٦).

والوثنيَّة في الاصطلاح: كل تمثالٍ من خشب، أو حجارة، أو ذهب، أو فِضّة، أو نحاس، وكانت العرب تنصبها وتعبُدُها[١].

وقد ذكر عددٌ من المستشرقين دعوى الوثنيَّة في شعائر الحج في كُتبهم[٢]، ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

١. **دعوى المستشرق البريطاني وليام مونتقمري وات** (W.MontgomeryWatt)[٣]، الذي كرَّر في عددٍ من كتبه، وفي النصوص التي نقلت منها إلى الموسوعة البريطانية، أن الكعبة كانت معلمًا وثنيًّا، فقال: «إن الكعبة ذات أهمية في الإسلام لكونها مَعلمًا وثنيًّا مقدَّسًا»[٤]، كما يقول: «إن النبي ﷺ وأصحابه تعبَّدوا معًا في الكعبة، وهي مكان لعَبَدة الأصنام عند العرب»[٥].

٢. **دعوى المستشرق الفرنسي هنري ماسيه** (Henri Masse)[٦]، حيث ذكر في كتابه (الإسلام) ما نصُّه: «ويحتفظ الحج بأهميّةٍ رئيسيَّةٍ، سواء كان بسبب نتائجه

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٤/ ٣٤٢٩).

(٢) حول دعوى الأصل الوثني للحج يُنظر -على سبيل المثال-: الإسلام، لهنري ماسيه (ص١١٧)، وحياة محمد، لإميل درمنغم، ترجمة: عادل زعيتر (ص٣٦٧)، والعقيدة والشريعة في الإسلام، لاجناتس جولد زيهر (ص٢٤)، الإسلام والعرب، لروم لاندو (ص٣٨)، ومحمد في المدينة، لمونتغمري وات (ص٤٦٨)، وتاريخ العرب، لفيليب حتي (١/ ١٨٥)، ودائرة العلوم الاجتماعية (ص٢٠٥)، ودائرة معارف الدين والأخلاق (٨/ ٨٧٥).

(٣) مستشرق ومؤرِّخ اسكتلندي، توفي عام ٢٠٠٦م، عمل أستاذًا في جامعة إدنبرة، له العديد من الكتب عن النبي محمد ﷺ والإسلام، وكان المحرِّر المشرف على المادة الإسلامية في الموسوعة البريطانية. للاستزادة انظر: النبي محمد في مؤلفات مونتجمري وات عن السيرة النبوية: دراسة تحليلية مقارنة، ماهر جواد كاظم الشمري، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت.

(٤) محمد في مكة، مونتقمري وات، تعريب الدكتور: عبد الرحمن الشيخ (ص٦٣). وهو أحد المراجع التي تم نقل النص منها للموسوعة البريطانية.

(٥) المرجع السابق (ص١٤١).

(٦) مستشرق فرنسي توفي عام ١٩٦٩م، وعمل في عدة مناصب منها: مدير المعهد الفرنسي في القاهرة، وأستاذًا في جامعة الجزائر، ومديرًا للمدرسة الوطنية للغات الشرقية، وعضوًا في مجمع الكتابات والآداب، والمجمع الإيراني، والمجمع العلمي بدمشق. وله عدة مؤلفات عن الإسلام. انظر: موسوعة=

السياسية، والاقتصادية، أو بسبب قِدمه، وبالفعل فهو يبدو مزيجًا من البقايا الوثنيَّة والطقوس الجديدة، والمزارات التي يزورها الحاج في مكة، هي أماكن عبادةٍ قبل الإسلام»[١].

٣. **دعوى المستشرق الهولندي فنسنك** (Arend Jan Wensinck)[٢]، حيث قال: «لم تكن نظْرة النبي إلى الحج واحدة على الدوام، فلا بُدَّ أنه اشترك كثيرًا في مناسكه وهو حَدَث، أمّا بعد دعوته فقد كانت عنايته قليلةً أوَّل الأمر بالحج؛ فلم يرِد ذكر الحج في السُّوَر القديمة، ولا يبدو من المصادر الأُخرى أن النبي اتخذ خطّةً مُحدَّدةً حيال هذه العادة الوثنيَّة الأصل»[٣].

٤. **دعوى المستشرق بوهل** (Fr. Buhl)[٤]، فقد ذكر وثنيَّة شعائر الحج صراحةً فقال: «ورَمْي الجمرات شعيرةٌ أخذها الإسلام عن الوثنيَّة؛ فلم يُنصّ عليها صراحة في القرآن، ولكنها ذُكرت في سِير النبي، وفي الحديث»[٥].

٥. **دعوى المستشرق دينيس سورات** (Saurat, Denis)[١]، وقد وصف شعائر الحج بالوثنيَّة، بقوله: «إن محمدًا يكاد يكون هو الوحيد الذي نعرِفه عن

=المستشرقين، عبد الرحمن بدوي (ص٣٧٠).

(١) الإسلام، هنري ماسيه (ص١٦٧). وللاستزادة حول آراء هنري ماسيه في مصادر الإسلام ينظر: رؤية المستشرق هنري ماسيه للعقيدة الإسلامية ومصادرها من خلال كتابه الإسلام: دراسة نقدية، رسالة ماجستير للباحث: عبد الرحمن بن يوسف شاهين.

(٢) أرند جان فنسنك، مستشرق هولندي. توفي عام ١٩٣٩م. قام برحلات إلى ومصر وسورية وغيرهما من بلاد العرب. وتولى تحرير دائرة المعارف الإسلامية سنة ١٩٢٥م، بلغاتها الثلاث. وله جهود في جمع وفهرسة كتب السنة مع فريق من الباحثين كما ذكر ذلك الدكتور محمد فؤاد عبد الباقي في مقدمة المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي. انظر: الأعلام، خير الدين الزركلي (١/ ٢٨٩).

(٣) دائرة المعارف الإسلامية (٦/ ٢٦٧).

(٤) مستشرق دنمركي توفي في كوبنهاغن عام ١٩٣٢م، وكان أستاذ اللغات الساميّة في جامعتها. كتب في دائرة المعارف الإسلامية فصولًا في تراجم بعض أعلام المسلمين، وله كتاب «حياة محمد» باللغة الدانمركية وتُرجم إلى الألمانية. انظر: الأعلام، خير الدين الزركلي (٥ / ١٣٩).

(٥) دائرة المعارف الإسلامية (٧/ ١٠٣).

طريق التاريخ من بين عُظماء مؤسِّسى الأديان، إذ إن الخرافات لم تستطع أن تُخيفه؛ فقد كان العرب يعبدون الجن والأرواح التى تقطن الأحجار، إلى جانب عدَدٍ من آلهة القبائل المختلفة، ولقد محا الإسلام هذا كلَّه، ولم يُبقِ منه سوى الحجر الأسود؛ فقد ظلَّ مَوْطن القداسة الجوهرية»[٢]. فهو هنا يُلمح لكون الحجر الأسود من بقايا الوثنيَّة!

٦. **دعوى المستشرق فير واير** (f .H. Weir)[٣]، الذي وصف شعائر الحج بأنها جزء من الموروثات الجاهلية، كما حاول أن يجعلها مستَوْحاة من المسيحيين واليهود، الذين لديهم فى شرائعهم حجٌّ أيضًا، فقال: «ولكن محمدًا وجد الحج إلى الأماكن المقدَّسة متأصّلًا فى نفوس العرب، ولا يستطيع له دفعًا، فكان قصاراه ألّا يُبقي من بيوت العبادة إلا على بيت واحد، جعله بيت الله الواحد»[٤].

وهناك العديد من الدعاوى لمستشرقين آخَرين ممن عُرف عنهم التكذيب بالإسلام وأصوله، والتشكيك بالوحي وتصويره على أنه نُسخة مشوَّهة عما سبقه من الحضارات[٥].

(١) أستاذ في جامعة لندن، وهو صاحب هو صاحب كتاب "تاريخ الأديان" نشره عام ١٩٣٣م.

(٢) الدين: بحوث ممهدة لتاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز (ص١٢٥)، نقلًا عن كتاب المستشرق "تاريخ الأديان" باللغة الإنجليزية.

(٣) فير هانز واير مستشرق ألماني، توفي عام١٩٨١م، عمل أستاذًا للغة العربية في جامعة مونيستر. انظر: المستشرقون، نجيب العقيقي (٢/ ٨٠٦).

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، (٦/ ٢٦٧).

(٥) للاستزادة حول دعوات التشكيك بأصول الإسلام انظر: موقف المستشرقين من العبادات في الإسلام من خلال دائرة المعارف الإسلامية، محمد بن سعيد السرحاني، رسالة دكتوراه.

المبحث الثاني
أسس نقض دعاوى المستشرقين حول وثنيَّة شعائر الحج

١. الأساس العَقَديّ.
٢. الأساس العقليّ.
٣. الأساس التاريخيّ.
٤. الأساس المنهجيّ.

وبيان ذلك وتفصيله كما يلي:

أولًا: الأساس العَقَديّ للردّ على دعاوَى المستشرقين:

يؤكِّد الإسلام على التفريق بين الحج والوثنيَّة بإخلاص الحج لله وحده، حيث يقوم الحج في كل شعائره على التوحيد والبراءة من الشرك، ابتداءً من التَّلبِية وحتى نهاية المناسك، بينما تقوم الوثنيَّة على عبودية وتعظيم غير الله، ومما يُبرهن لهذا الفرق العقدي ما يلي:

١. اقتران أغلب شعائر الحج كالطواف ورمي الجمرات والنحر بالتكبير، وهو إعلانٌ بأن الله تعالى أكبر من كل شيء، وذلك يتضمَّن نفي الوثنيَّة التي تتضمَّن تعظيم غيره.

٢. الرَّبط بين التوحيد وشعائر الحج في القرآن، والتحذير من الشرك، وهذا دليل ظاهر في عدم اشتمال الحج علي شيءٍ مما يُنافي التوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

٣. ثبت في السُّنّة أن أهل الملأ الأعلى في السماء يطوفون حول البيت المعمور؛ ففي حديث الإسراء: «**ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قال: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ**

يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ»[١]، فإن كان المستشرقون يعلَمون أن البيت المعمور – وقد ذُكِر في القرآن[٢]– هو مَحَلٌّ لطواف الملائكة؛ فإنه يلزمهم القول بأن الملائكة – والعياذ بالله– وثنيّين! قياسًا على قولهم بهذا في شعيرة الطواف حول الكعبة.

٤. أن الإسلام لا يكتفي بمنع تعظيم العبادة لغير الله، بل يجعل تعظيم التشريف، والتكريم، كذلك رهنًا لأمر الله، ولهذا ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه وقف أمام الحجر الأسود وقال: «أيها الحجر إني أقبلك وأنا أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك»[٣]، وهذا تأكيد على البراءة من الوثنيَّة، ومن اعتقاد النفع، أو الضر، من الحجر، وقد ذكر الطبري أن سبب قول عمر هذا؛ لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام، فخشي أن يظن الجهال أن استلام الحجر الأسود من باب تعظيم الأحجار، كما كانت العرب تفعل في الجاهلية[٤].

٥. من عقيدة أهل السنة والجماعة، التفريق بين سجود الطاعة، والامتثال لأمر الله، وسجود الشرك والتعظيم، فسجود الطاعة، والامتثال، قد ورد في القرآن ابتلاءً من الله واختبارًا للملائكة، وتكريمًا لآدم ولم يكن هذا من قبيل الشرك أو الوثنيَّة[٥]، ويقاس عليه شعائر الحج كلها؛ فهي طاعة وامتثال لأمر الله بها، لا تعظيمًا للأحجار بذاتها.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، برقم (١٦٢).

(٢) سورة الطور، آية:٤.

(٣) صحيح البخاري, كتاب الحج, باب ما ذكر في الحجر الأسود، برقم (١٥٢٠)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف، برقم (٣١٢٦).

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر (٣/ ٣٠٠).

(٥) انظر أقوال أهل العلم في سجود الملائكة لآدم في تفسير الطبري (١/ ٣٠١)، والوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي (١/ ١١٩)، وتفسير البغوي (١/ ٣٥).

الأصنام ومظاهر الشرك والوثنيَّة، وأمر مُنادِيه أن يُنادي: «**أَلَا لَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ**»(١).

كما كان الناس في الجاهلية يتقصَّدون شروق الشمس وغروبها لإفاضتهم في عَرَفة ومزدلفة، فتقصَّد في حج الإسلام أن يخالفهم، فأخَّر النزول من عرفات إلى ما بعد الغروب، وقدَّم النزول من مزدلفة لما قبل الشروق، مما يدل على أن الأمر يتعلَّق بمخالفة طَقْسٍ تعبُّديّ للشمس سابقًا(٢)، وهذا كله من هدم معاني الوثنيَّة في الحج؛ ولهذا أُمر الحاج عند الشروع في السعي بين الصفا، والمروة أن يتلو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨] وجاء ذلك الأمر لأجل إزالة شبهة الوثنيَّة، عندما كان المشركون يسعَوْن بين الصفا والمروة وعلى كل واحدٍ منهما أصنام، ومستند رفع الحرج والجُناح هو محض التعبُّد(٣)

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري برقم (٣١٧٧)، واللفظ له، ومسلم برقم (١٣٤٧)، باختلاف يسير.

(٢) كانوا يُفيضون من عرفات قبل غروب الشمس، ويفيضون من جَمْعٍ إذا طلعَت الشمس، فخالف النبيُّ ﷺ ذلك كُلَّه؛ عن المِسوَر بن مَخرمة قال: خطبَنا رسول الله ﷺ وهو بعرفات فقال: «...ألَا وإنّ أهل الشرك والأوثان كانوا يَدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشَّمسُ إذا كانت الشَّمسُ في رؤوسِ الجبال كأنها عمائمُ الرجالِ في وجوهِها، وإنّا ندفعُ بعد أن تغيبَ الشمس، وكانوا يَدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلعَ الشمسُ إذا كانت الشمسُ في رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجالِ في وجوهها، وإنّا ندفع قبل أن تطلعَ الشمس، مخالفًا هَدْيُنَا هَدْيَ أهل الشرك». انظر: المستدرك على الصحيحين (٣٠٩٧).

(٣) عن هشام بن عروة، أخبرني أبي، قال: قلت لعائشة: ما أرى عَلَيَّ جناحًا أن لا أتطوَّف بين الصفا والمروة، قالت: لِمَ؟ قلتُ: لأن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ الآية، فقالت: لو كان كما تقول، لكان: فلا جناح عليه أن لا يطوَّف بهما، إنما أُنزل هذا في أناس من الأنصار كانوا إذا أهلُّوا أهلُّوا لمناة في الجاهلية، فلا يحلُّ لهم أن يطوَّفوا بين الصفا والمروة، فلما قدموا مع النبي ﷺ للحج ذكروا ذلك له، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فلعَمْري ما أتمَّ الله حج من لم يطُفْ بين الصفا والمروة". والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب وجوب الصفا والمروة وجعل من شعائر الله، برقم (١٥٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به، برقم (١٢٧٧).

الأصنام ومظاهر الشرك والوثنيَّة، وأمر مُنادِيه أن يُنادي: «**أَلَا لَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ**»(١).

كما كان الناس في الجاهلية يتقصَّدون شروق الشمس وغروبها لإفاضتهم في عَرَفة ومزدلفة، فتقصَّد في حج الإسلام أن يخالفهم، فأخَّر النزول من عرفات إلى ما بعد الغروب، وقدَّم النزول من مزدلفة لما قبل الشروق، مما يدل على أن الأمر يتعلَّق بمخالفة طَقْسٍ تعبُّديّ للشمس سابقًا(٢)، وهذا كله من هدم معاني الوثنيَّة في الحج؛ ولهذا أُمر الحاج عند الشروع في السعي بين الصفا، والمروة أن يتلو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨] وجاء ذلك الأمر لأجل إزالة شبهة الوثنيَّة، عندما كان المشركون يسعَوْن بين الصفا والمروة وعلى كل واحدٍ منهما أصنام، ومستند رفع الحرج والجُناح هو محض التعبُّد(٣)

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري برقم (٣١٧٧)، واللفظ له، ومسلم برقم (١٣٤٧)، باختلاف يسير.

(٢) كانوا يُفيضون من عرفات قبل غروب الشمس، ويفيضون من جَمْعٍ إذا طلعَت الشمس، فخالف النبيُّ ﷺ ذلك كُلَّه؛ عن المِسوَر بن مَخرمة قال: خطبَنا رسول الله ﷺ وهو بعرفات فقال: «..**أَلَا وإنّ أهل الشرك والأوثان كانوا يَدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشَّمسُ إذا كانت الشَّمسُ في رؤوسِ الجبال كأنّها عمائمُ الرجالِ في وجوهِها، وإنّا ندفعُ بعد أن تغيبَ الشمس، وكانوا يَدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلعَ الشمسُ إذا كانت الشمسُ في رؤوس الجبال كأنّها عمائم الرجالِ في وجوهها، وإنّا ندفع قبل أن تطلعَ الشمس، مخالفًا هَدْيُنَا هَدْيَ أهل الشرك**». انظر: المستدرك على الصحيحين (٣٠٩٧).

(٣) عن هشام بن عروة، أخبرني أبي، قال: قلت لعائشة: ما أرى عَلَيَّ جناحًا أن لا أتطوَّف بين الصفا والمروة، قالت: لِمَ؟ قلتُ: لأن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ الآية، فقالت: لو كان كما تقول، لكان: فلا جناح عليه أن لا يطوَّف بهما، إنما أُنزل هذا في أناس من الأنصار كانوا إذا أهلُّوا أهلُّوا لمناة في الجاهلية، فلا يحلُّ لهم أن يطوَّفوا بين الصفا والمروة، فلما قدموا مع النبي ﷺ للحج ذكروا ذلك له، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فلعَمْري ما أتمَّ الله حج من لم يطُفْ بين الصفا والمروة". والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب وجوب الصفا والمروة وجعل من شعائر الله، برقم (١٥٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به، برقم (١٢٧٧).

﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، فصار الحاج يسعى بين الصفا والمروة لأن الله أمره بذلك، لا لذات الجبَلَين، بل إن من هدي النبي ﷺ في كل مرَّة يصعد على الصفا والمروة أن يقول: «**لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ**»، ويكرِّر ذلك في كل مرَّةٍ ثلاثًا، ويدعو بينها[1]، وهذا كله تأكيد للتوحيد، ونفيٌ للشرك والوثنيَّة.

٩. أن تفضيل عرفة والحجر الأسود، ونحوها من شعائر الحج على غيرها؛ إنما هو من أمور التعبُّد التي مبناها في عقيدة الإسلام على التسليم، فقد فاضلَ اللهُ تعالى بين الأزمنة، فلَيْلة القدر خير من ألف شهر، وفاضلَ بين الناس والأنبياء، وبين الأنبياء بعضهم على بعض.

١٠. ثبت في السُّنّة أن منهج الإسلام هو هدم الوثنيَّة، لا تقليدها، وذلك ليس في الحج وحده، وإنما في سائر الشعائر، ومظاهر الحياة كلها، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتى رجل النبي ﷺ فقال: إني نذرتُ أن أذبح بِبُوانَة، فقال: «**في قلبِكَ منَ الجاهليَّة شيءٌ؟**» قال: لا ، قال: «**أَوْفِ بِنَذرِكَ**»[2]. ورواه في موضع آخر بزيادة: وقد سأل النبي ﷺ: «**هل كانَ فيها مِن أوْثانِ الجاهِليَّةِ؟** فقال: لا، قال: **وهل كانَ فيهَا عيدٌ من أعيادِهم؟** فقال: لا، فقال: **أَوْفِ بِنَذرِكَ**»[3].

١١. من السُّنّة في ركعتي الطواف أن يقرأ فيهما بعد الفاتحة في الأولى بالكافرون، وبالصَّمد في الثانية، وفي هذا تناسبٌ عجيب بين شَعيرة الطواف

(١) في حديث جابر الطويل في حجة النبي ﷺ لَمَّا دَنَا النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الصَّفَا قَرَأَ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ وقال: أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ، فَبَدَأَ بِالصَّفَا فَرَقِيَ عَلَيْهِ حَتَّى رَأَى الْبَيْتَ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، فَوَحَّدَ اللَّهَ وَكَبَّرَهُ وَقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، ثُمَّ دَعَا بَيْنَ ذلكَ. قَالَ مِثْلَ هَذَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. انظر: صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ برقم (١٢١٨).

(٢) سنن البيهقي الكبرى (١٠ / ٨٤).

(٣) المرجع السابق (ص ٨٣).

والتوحيد، وتأكيدٌ على البراءة من الشرك. روى الترمذيُّ عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ «قرأ في ركعتي الطواف بسورتي الإخلاص: قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد». قال العراقي: « هذا من باب التغليب، حيث أطلق على سورة "الكافرون" سورة الإخلاص، ويحتمل أنه على حقيقته، وأن سورة "الكافرون" على انفرادها سورة الإخلاص؛ لما فيها من التبرِّي ممن عُبد من دون الله»[١] .

١٢. أُمر الحاجُّ حين يطوف بالكعبة أو يستلم الحجر الأسود أو يسعى بين الصفا والمروة أو يقِف بعرفة أو يرمي الجمار؛ بذكر الله والتكبير والتسبيح والدعاء لله وحده، ولا يتوجَّه شيءٌ من ذلك لتلك الأحجار مُطلقًا، فصار ذلك نافيًا للوثنيَّة في أصلها ومعناها.

ثانيًا: الأساسُ العقليُّ للردِّ على دعاوَى المستشرقين:

يمكن إبطال علاقة الحج بالوثنيَّة من الناحية العقليّة، من عِدَّة وجوه كما يلي:

١. إذا كان التوحيد هو أوَّل أركان الإسلام الخمسة، والحج ركنه الخامس، وكلاهما مما لا يتمُّ إسلام المرء إلا به؛ فإن هذا كافٍ لنفي شبهة الوثنيَّة في الحج، إذ لا يتصوَّر وجود ركنَيْن متناقضَيْن في أركان الإسلام الخمسة!

٢. يمنع العقل السليم التسويةَ بين فعلَيْن مع اختلاف باعثهما، فباعث الفعل والنية في مناسك الحج هو أمر الله، وباعث الوثنيَّة هو تعظيم وتقديس ذلك الوَثَن، وفرقٌ كبير بين أن تذهب للحجر على أنه الإله أو واسطته، وبين أن تذهب للمكان الذي فيه الحجر أو تكون عنده لأن الله هو الذي أمرك بذلك.

٣. أن الوثنيَّة في معناها العَقَدي الخالص إنما تكون من الأدنى للأعلى، فيعتقد الوثَنيّ عظَمَة من يتوَجَّه إليه، وهذا لا يتطابق مع منزلة الحجر الأسود، وأحجار

(١) تحفة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، باب ما جاء فيما يقرأ في ركعتي الطواف (٣/ ٥١٧) برقم (٨٦٩).

الكعبة كلها في الإسلام؛ فليست هذه الأحجار أعظم من المسلم، ولا أكرم منه على الله، جاء في الحديث أن حُرمَة المسلم عند الله أعظم من حُرْمة الكعبة، وقد تأصَّل هذا في نفوس المسلمين الأوائل، فعن عبد الله بن عمر ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «**ما أطيَبَكِ! وأطيَبَ رِيحكَ! ما أعظَمَكِ! وأعظَمَ حُرمتِك!**[(١)] **والذي نفسُ محمدٍ بيده، لحُرْمة المؤمن أعظَمُ عند الله حُرمَةً منك، مالُه، ودمُه، وأن نظنَّ بهِ إلا خيرًا**»[(٢)]، وفي رواية : نظر ابن عمر ﷺ يومًا إلى البيت، أو إلى الكعبة، فقال: «ما أعظمَك! وأعظَم حُرمتك! والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك»[(٣)].

٤. أن التقبيل، والطواف، والسعي، والرمي، والوقوف بعرفة؛ كلها أعمالٌ لا ترتبط بذات الحجر، وإنما برمزيَّته ومكانه، فالكعبة -على سبيل المثال- ليست صَنمًا يُعبد، وإنما هي في الإسلام قِبلةٌ واتجاه، وقد غُيِّرت أحجارها مرارًا عبر التاريخ[(٤)]، وقد صعد عليها بعض الصحابة، ليرفعوا نداء التوحيد عاليًا من فوق سطحها الشريف؛ لأنها قبلة التوحيد، ويصعد عليها العاملون على تغيير كسوتها دون تأثم ولا حرج، وليس ذلك معهودًا في تعظيم الأوثان! ولهذا لا يُخطئ الناظر في رؤيته لمناسك الحج أن المقصود هو مكان الحجر، لا الحجر ذاته، ولهذا لم يُوجب الإسلام مسّ الحجر الأسود ولا الكعبة أثناء الطواف، ولم يشترط الوقوف على أحجار جبل عرفة، ولا المشعر الحرام، بل الوقوف في المكان حولها، ولا إصابة الشاخص في

(١) والمقصود حُرمة الموضع والمكان، لا ذات الأحجار. والحُرمة هنا حُرمة تفضيل وتشريف، لا حُرمة تقديس يُفضي إلى العبادة كما تقتضي الوثنية.

(٢) رواه ابن ماجه، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترغيب (٢ / ٦٣).

(٣) رواه الترمذي، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: "إسناده حسن رجاله ثقات". برقم (٣٤٢٠).

(٤) أُعيد بناء الكعبة (١٢) مرة، انظر: قصة البيت الحرام. د. محمد بن عبد الله بن إبراهيم الخرعان (ص ١٢).

الجمرات، فدلّ على أن المقصود بذلك كله هو الموضع لا العَيْن[١].

٥. أن الأحجار التي في شَعيرة الحج مُختلفة المكان والاستعمال، فيُقبّل المسلمون حجرًا، ويرمون أحجارًا، ويسعَوْن بين حجَرَين؛ وذلك لأن مدار العمل إنما هو أمر الله، لا تعظيم أو تقديس الوثنيَّة.

٦. لو كان للحجر الأسود قُدسيةٌ وثنيَّة لكان استلام النبي ﷺ له بعصاه نوعًا من الإهانة؛ لأنه يتنافى مع التعظيم، وفعله ﷺ لذلك يؤكِّد أن المقصد هو التعبُّد وتكبير الله عند هذا الموضع، سواء استلم الحجر الأسود بيده، أم بعصاه، أم أشار له بيده.

ثالثًا: الأساس التاريخيّ للردِّ على دعاوَى المستشرقين:

يمكن إبطال علاقة الحج بالوثنيَّة من الناحية التاريخية، من عِدَّة وجوه كما يلي:

١. أن الحج تاريخيًّا هو من ملّة إبراهيم عليه السلام، وقد أمر الله الخليل أن يؤذِّن في الناس بالحج، قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]، ولا يمكن أن يُتَّهم إبراهيم بعبادة الأصنام، وهو محطِّم الأصنام، وهو صاحب الملَّة الحنيفيّة ملة التوحيد، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

٢. ارتباط الحج على مرّ التاريخ بالأديان السماويّة، لا بالوثنيَّة، فتعظيم مكة والبيت الحرام، والكعبة المشرَّفة ليس من عادات الوثنيَّة، وإنما من بقايا دين الأنبياء جميعًا؛ لأنه أمرٌ إلهي، والوثنيَّة انحرافٌ عن الأصل، فالتعظيم للكعبة مما نطَقَت به بِشارات الكتب السابقة، فقد صَرَّحَت بما لا يدَع مجالًا للشكّ باسم مكة والكعبة المشرفة، ومن أجلَى ما في ذلك ما جاء في نبوءات النبي أشعياء عليه السلام، مُثنِيًا

(١) للاستزادة انظر: صفة الحج والعمرة، الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين، الناشر: دار الوطن.

على مكة ومبشِّرًا بها، والتي سماها بجبال فاران[١]، قال ابن تيمية معلِّقًا على هذه البشارة: "فهذه الصفات كلها حصَلت بمكة، فحُملت إليها ذخائر البحرين، وحَجَّ إليها عساكر الأمم، وسِيقت إليها أغنام فاران، وفاران هي البرِّية الواسعة التي فيها مكة، وضاقت الأرض عن قطَرات الإبل الموبَّلة الحاملة للناس وأزوادهم إليها، وأتاها أهل سبأ، وهم أهل اليمن" [٢].

٣. لم يثبت تاريخيًّا تعظيم أهل الجاهلية للحجر المتعلِّق بمناسك الحج؛ وإنما نصبوا الأوثان حول البيت، وبلغت ما يزيد على الثلاثمائة صنم[٣]، وكانت طقوس الوثنيَّة مختلفةً عن الحج الإسلامي كما سبق، وقد ذكر الشيخ محمد طاهر الكردي[٤] أن العرب لم يعبد أحدًا منهم الحجر الأسود أو المقام، مع عظيم احترامهم لهما، ومحافظتهم عليهما، والسِّرّ في ذلك عصمة الله تعالى، فإنهما لو عُبِدا في الجاهلية وجاء الإسلام بتعظيمهما؛ لقال أعداء الإسلام إنه لم يخلُص من شائبة الشرك [٥].

٤. ثبت في التاريخ وجود عَدَدٍ من الأماكن المعظَّمة في الجاهلية، واتخاذ بعض البيوت كالكعبة، وكانوا يحجُّون إليها في اليمن وغيرها[٦]، فلما اندثرت كل هذه البيوت وأُزيلت دلّ على ارتباط الحج بتاريخ الوحي الإلهي لإبراهيم الخليل، لا بتاريخ الوثنيَّة وبيوتها.

---

(١) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية (٥ / ٢٥٥).

(٢) المصدر السابق، وانظر: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم (ص١٥٥).

(٣) انظر: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الأزرقي، (ص٤١).

(٤) محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي (١٣٢١ - ١٤٠٠هـ)، من بيت علم، خطَّ المصحف الكريم الذي أطلق عليه مصحف مكة المكرمة، وهو أول مصحف طُبع في مكة المكرمة، توفي رحمه الله بجدة، ودفن بالمعلاة بمكة المكرمة. انظر: أعلام الحجاز، محمد علي المغربي (٢/ ٣١٥).

(٥) انظر: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، محمد طاهر الكردي (٢ / ٣٤).

(٦) كان لعرب الجاهليّة بيوت عبادة مشهورة باسم "الكعبة"، (وكل بناءٍ مربع فهو كعبة كما قرره الثعالبي في فقه اللغة ص٣٦)، وذهب بعض الباحثين إلى عدّها بـ ٢٤ كعبة، وآخرون قالوا ٢٠ فقط، وجمعيها حَظِيَت بالتكريم والإجلال من أصحابها ولو بشكلٍ قَبلي محدود. انظر: الأصنام، ابن الكلبي،(ص٤٤).

٥. لم تكن أرض عرَفة يومًا ما ذات تاريخ وثنيّ أو تعظيم جاهلي؛ بل على العكس من ذلك، فقد كانت قريش تجعلها موْقِفًا لعامّة الناس، بينما اختارت قبائل الحُمْس[١] أن يقِفوا ويفيضوا من (جَمْع)[٢] بدَلًا منها، ثم جاء الإسلام فنهاهم عن هذا، فعن عائشة رضي الله عنها: أن هذه الآية نزلت في الحُمْس: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]، قالت: كانوا يفيضون من جَمْع فدَفعوا إلى عرفات[٣].

من أخطاء بعض المستشرقين التاريخيّة في هذا الباب أنهم فصَلوا تاريخ مكة عن التوحيد وعن إبراهيم الخليل عليه السلام، وجعلوه مرتبطًا بقُريش وقبائل العرب ووثنيَّة الجاهلية، وارتباط تاريخ مكة بالخليل عليه السلام أقدَم من وثنيات العرب!

رابعًا: الأساس المنهجيّ للردِّ على دعاوَى المستشرقين:

تُعرَّف المنهجية بأنها: «معايير فكريّة وقوالب موضوعيّة توضع لتحديد آليات العمل المعرفي قبل الشروع به، كما يمكن أن تحاكِم المناهج وتُقايسها بنظرة شمولية»[٤].

ومن الملاحظ أن دعاوى المستشرقين حول وجود الوثنيَّة في شعائر الحج، قد اشتملت على خللٍ منهجي[٥] من عِدّة نواحي، كما يلي:

١. عدم قدرة المستشرقين على التخلّص من إطار النَّظرة الغربية للأديان، وأنها متطوِّرة، وذات منشأ أرْضيٍّ، وكأنه ﷺ جاء ليؤلِّف دينًا أرقى، يتعلَّق بإله أقوى، وبطقوس وثنيَّة أقلّ، وقد ذكروا هذا صراحةً في بعض كتبهم، كدائرة المعارف

(١) الحُمْس: هم قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وجُشم وبنو عامر بن صعصعة وبنو نصر ابن معاوية، وسُمّوا حمسًا لتشديدهم في دينهم، والحماسة الشدّة، انظر: تفسير القرطبي (٢/ ٣٤٥).

(٢) بفتح الجيم وسكون الميم، وهي مزدلفة، سُمِّيت بذلك لأن آدم اجتمع فيها مع حواء، انظر: تحفة الباري بشرح صحيح البخاري، أبو يحيى الأنصاري (٢/ ٤٠١).

(٣) فتح الباري، ابن حجر (٢/ ٥٩٩).

(٤) أصول البحث العلمي، عبد الهادي الفضلي (ص٥٠).

(٥) قدَّم الدكتور علي النملة بحثًا عن أخطاء المستشرقين المنهجية بعنوان: أعمال المستشرقين مصدرًا من مصادر المعلومات عن الإسلام والمسلمين، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (٧/ ٥١٩).

البريطانية[١]، ولم يستَوْعِبوا أن فكرة التوحيد جاءت واضحةً صريحةً لم تتدَّرج، وأنها قديمة قِدم البشريّة، فالأصل هو التوحيد، والشرك طارئ، وقد أعلنها ﷺ صراحةً، ولم يقبل فيها ﷺ المساومة من قريش بأن يعبدوا ربّه عامًا ويعبد ربهم عامًا، حين طلبوا منه ذلك![٢].

٢. اعتماد بعضهم على قضايا جُزئية، وأحيانًا غير جوهرية، للحكم على كل شعيرة الحج ومعناها، فلا يصحّ أن يُقال بوثنيَّة الحج كلّه -على سبيل المثال-، ويستشهد على ذلك بتقبيل الحجر الأسود أو مسحه، وهو ليس من الأركان، بل مما لا يجب استلامه ولا تقبيله في الحج ولا غيره، بل هو من السُّنن باتفاق أهل العلم[٣].

٣. التناقض المنهجي في المصادر؛ فهم يجمعون بين التشكيك في المصادر الإسلامية الكبرى، وبين الرجوع إلى مصادر ليست في مستوى البحث، في مسائل من أركان الدين الإسلامي؛ فيشكِّكون في أصل السنة، ثم يعتمدون على الشاذ والضعيف من الأحاديث والأخبار والروايات[٤].

٤. تقديم تفسيرات وتعليلات متناقضة مع مقصد الحج، مع وجود تعليلات أخرى أقوى منها تؤيِّد مقاصد الحج، ومن أمثلة هذا الخلل المنهجي: تقديم التفسير الوثنيّ على التفسير الرمزيّ والتعبديّ في تلك المناسك.

---

(١) انظر: السيرة النبوية في دائرة المعارف البريطانية، دراسة تحليلية لما كتب تحت مادة النبي محمد ورسالته، د. وليد العمري، (ص٢٩).

(٢) وهو سبب نزول سورة الكافرون، وأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَٰهِلُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الزمر: ٦٤-٦٦]. انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٦٢٥).

(٣) انظر: الشرح الممتع لحاشية الروض المربع، ابن عثيمين (٧/ ٢٣٨).

(٤) للاستزادة حول هذا التناقض المنهجي انظر: المستشرقون والسيرة النبوية، عماد الدين خليل، والاستشراق دراسات تحليلية تقويمية، محمد عبد الله الشرقاوي.

٥. إيراد مقدِّمات جُزئية ضعيفة، ثم بناء نتائج عامّة وكبرى لا تناسب تلك المقدّمات، ولا تنتج عنها، كالقول بأن شعائر الحج لم تَرِدْ جميعها صراحةً في القرآن، وإنما في السنة[١]، ومعلوم أن هذه المقدِّمة ضعيفةٌ، لا تنهض لمواجهة القَدْر الوارد من شعائر الحج في القرآن، كما لا تقوَى على جَعْل تلك الشعائر -وإن لم تَرِد- وثنيَّةً الأصل أيضًا!! ناهيك أن السُّنّة عند المسلمين من الوحي، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣ - ٤] وقال ﷺ: «**ألَا إنِّي أوتِيتُ القرآن ومِثلَه مَعَه**»[٢].

٦. إغفال الحقائق الكبرى في الحجِّ التي تخالف استنتاجاتهم، أو تبطلها، وأبرزها تجاهل معنى النصوص التي غَيَّر فيها النبي ﷺ كثيرًا من وثنيّات الحج الجاهلي، كإلغاء نداء الشرك في صيغة تلبية المشركين وتغييرها، وهدم الأصنام التي حول الكعبة قبل حجّة الوداع.

٧. من الخطأ المنهجي اعتبار كل عادات الجاهلية وثنيَّة، فالجاهلية قد بقِيَ فيها كثير من أمور الحنيفيّة السمحة من بقايا دين إبراهيم، وكان فيهم الحُنَفاء[٣]. ويترتَّب على هذا أن يكون من الخطأ المنهجيّ أيضًا اعتقاد ضرورة إبطال الإسلام لكل عادات الجاهلية؛ فقد أبقى الإسلام محاسن عادات العرب، كما تتحوَّل العادات في الإسلام إلى عبادات إذا صاحَبَها إخلاص النية لله عز وجل، فإنه كان لدى الجاهليِّين بعض العادات الحسَنَة وأقرَّها الإسلام ووجَّهها نحو التقرّب إلى الله، وأصبحت عبادة.

٨. من الخطأ المنهجيّ التَّسوية بين المختلفَيْن، كالتسوية بين طاعة الله تعالى بفعل هذه المناسك الشريفة والسَّير على ملّة إبراهيم عليه السلام فيها؛ وبين شرك

(١) ورد هذا في دعاوى المستشرقين في أوّل هذا البحث.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب السنة، باب لزوم السنة وحسَّنه برقم (٢٦٦٣، و٢٦٦٤)، وصححه ابن حبان برقم (١٢)، والحاكم برقم (٣٧١).

(٣) انظر: البداية والنهاية (٢/ ٣٤١)، وسيرة ابن هشام (١/ ٢٤٢).

المشركين وخرافات الوثنيين في عبادة أحجار وأشجار وكائنات لا تضرّ ولا تنفع، وهذا في الحقيقة نوعٌ من التلبيس الذي لا يَمُتُّ للحقيقة بصِلة، بل هو تزييفٌ للحقائق، ففرْقٌ بين التقديس لله تعالى والتقديس مع الله؛ إذ إن التقديس لله طاعةٌ واتباعٌ وتوحيدٌ، لا يعتقد صاحبُه شيئًا من النِّدِّيَّة لشيء من المخلوقات مع الله سبحانه، وذلك كسجود الملائكة لآدم عليه السلام بأمر الله تعالى. أما التقديس مع الله فهو كسجود المشركين للأصنام واتخاذها أندادًا، لها ما لَهُ سبحانه من التعظيم، والتقديس، لقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥] (١).

٩. من الخطأ المنهجي التفريق بين المتساويَيْن؛ فإذا كان في الحج شعائر وثنيَّة فلماذا أبطل الإسلام بعضها وأبقى بعضها؟ وأبرز ما أبطله الإسلام من طقوس الجاهليين في الحج والتي لم يأمر بها الله ما يلي:

- إبطال طواف العُراة، وكان بعض الناس يطوفون عراةً من غير الحُمس لأنهم يخلعون ثيابهم التي أذنبوا بها، ولا يُحلّون الطواف بها، ولا يجدون من الحُمس من يُعطيهم بدلًا عنها، وقد نهاهم ﷺ عن ذلك في حجة الوداع.
- جعل السعي بين الصفا والمروة من فرائض الحج، وكان بعض العرب يتركونها إذا أحرموا بحجهم لمناة، وهو أحد الآلهة الوثنيَّة، وكان على الصفا والمروة إساف ونائلة من أصنام قريش، وقد تحرَّج المسلمون في البداية من السعي بين الصفا والمروة، وعند البخاري (٢): حدثنا أحمد بن محمد، أخبرنا عبد الله، أخبرنا عاصم قال: ثم قُلت لأنس بن مالك: أكُنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ قال: نعم؛ لأنها كانت من شعائر الجاهلية، حتى أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن

(١) انظر: فتوى دار الإفتاء المصرية برقم (٤١٣٨)، وتاريخ٢٦/ ٩/ ٢٠٠٥م، موقع الإفتاء:
14028https://www.dar-alifta.org/ar/ViewFatwa.aspx?sec=fatwa&ID=

(٢) سبق تخريجه.

شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

● أباح الإسلام العُمْرة في أشهر الحج، وكان في الجاهلية من الفجور أن يعتمر أحدٌ في أشهر الحج أو قبله، قال ابن عبد البر: « ولم يكن تمتّعٌ ولا قِرانٌ في شيء من حج الجاهلية، وإنما كانوا على الإفراد، والعمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور، لا خلاف بين أهل العلم والسير في ذلك» (١).

● أُذن بالقتال في الأشهر الحُرُم للضرورة، وكذلك في المسجد الحرام، قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وكان العرب من قبله يمتنعون عن القتل فيه والقصاص، فكان القاتل يضَع قِلادة من لحاء الشجر حين يُحرِم، ويدخل الحَرَم فلا يقربه أحدٌ ولو كان غريمه، وقد ذكر ذلك الطبري في تفسيره للهَدْي والقلائد (٢).

● سُمح بالتجارة في الحج، وكان المشركون يتحرَّجون منها، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

● حُرِّم النسيء في الحج، وهو تغيير أشهر الحج عن وقتها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ [التوبة:٣٧].

● نُهي عن بعض العادات، كدخول البيوت من غير أبوابها في حالة الإحرام، ولم يكن لها أصل تعبُّدي، قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ

(١) التمهيد، ابن عبد البر، (٨/ ٢١٤).
(٢) انظر: تفسير الطبري (٧/ ٧٨).

وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٩] . وذكر القرطبي أن الأنصار إذا حَجُّوا وعادوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، وكان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرم رجل منهم بالحج فإن كان من أهل المَدَر نَقَب في ظهر بيته، فمنه يدخل ومنه يخرج، أو يضع سُلَّمًا فيصعد منه وينحدر عليه، وإن كان من أهل الوَبَر يدخل من خلف الخيام، إلا من كان من الحُمس [(١)].

- أبطل عادة الحُمس بأن يفيضوا من غير عرفات، فقد كان جماعة الناس يفيضون من عرفات، ويفيض الحُمس من جَمْعٍ كما تقدم. فإذا كانت الشعائر في الحج وثنيَّة -كما يُروِّج بعض المستشرقين لهذا- فلماذا نُهي عن بعضها دون بعض؟ وإنما وُجدت هذه التغييرات كلها لتأكيد خلوص النية في الحج لله تعالى والتعلُّق به وحده، فهو تشريع إلهي أبقى على ما كان أصله إلهيًّا، وأبطل ما دخل إليه من الوثنيَّة.

١٠. من الأخطاء المنهجيَّة التي وقع بها المستشرقون: تجاهل الأصل السماوي للحَجّ، ووجوده في الديانات الأخرى، والحج إلى مكة مذكورٌ في الديانات الأخرى، ومكة مذكورةٌ في الكتب المقدَّسة على سبيل التعظيم، ومن تتبَّع ذلك يجد أن ذكر الحج قديمٌ في كتب اليهود والنصارى، وقد ارتبط بمكة، وذُكرت فيهما بأسماء متعدِّدة[(٢)].

١١. افتراض الأصل الوثنيّ لكل أنواع الحجِّ في سائر الأزمنة بناءً على وجود حج وثني في بعض الديانات، فيقولون: إن البوذية والهندوسية وغيرها من

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢/ ٣٤٥).

(٢) قدَّمت الباحثة الدكتورة ليلى زعزوع دراسة عن قُدسية مكة المكرمة، وفضلها في أسفار اليهود والنصارى (أهل الكتاب) في العهد القديم والجديد، أو ما يُعرف بالكتاب المقدس، في كتاب بعنوان "مكة المكرمة في الكتاب المقدَّس"، وهو من منشورات الدار العربية للعلوم، بيروت، عام ٢٠٠٥م.

الديانات الوثنيَّة تُقيم طقوسًا خاصةً بها، وتسميها حجًّا، وهو لدَى كثير من المِلل بمفهوم مُتقارب، من حيث الإحرام والتجرُّد من الزينة، ونحوها[١]، ولكن هذا لا يرتقِي منهجيًّا إلى اعتبار أن أصل الحجِّ كله وثني؛ إذ الوثنيَّات طارئةٌ على التوحيد، والرسالات السماوية سبقت كثيرًا من الديانات الأرضية، وجاءت مصحِّحةً لها على مرّ التاريخ.

١٢. بالغ المستشرقون في التفسير المادِّي لمناسك الحج، وهذا -كما يبدو- ناشئٌ من التصوُّر المادّي الذي تنتمي إليه الثقافة الغربية بكل توجهاتها المعاصرة، مما جعل المستشرقين يضعون عللًا ماديةً لشعائر الحج لا تستند إلى حُجَجٍ متينةٍ؛ كزعمهم أنه أُبقيَت في الحج بعض الوثنيّات لكسب ولاء العرب، وأن إباحة التجارة في الحج لكسب تجار الآفاق، ونحوها من المادِّيات التي تُناقض مقصد الحج الأساس وهو التوحيد[٢]، وتُناقض معاني الحج الرُّوحيّة الأخرى التي جاء الإسلام بها، كالتجرُّد والتعارف والتوبة والتطهُّر.



(١) انظر: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند، د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي (ص٦٠٧ وما بعدها).
(٢) انظر: السيرة النبوية في دائرة المعارف البريطانية، وليد العمري (ص ٢٥-٣٠).

المبحث الثالث
أقوال الـمُنصِفين من المستشرقين في نَقاء رسالة الحجِّ التوحيديَّة من مظاهر الوثنيَّة الـمُدَّعاة

● تضمُّ المدرسة الاستشراقية عدَدًا من الباحثين المتَّصفين فيما يبدو لنا بالموضوعية والإنصاف، وكانت آراؤهم أقرب إلى المنطق، وتسير في خطوات منهجيّةٍ علميّةٍ لا تخضع لأحكام مُسبَقة، وسوف أورد عَددًا من أقوال هؤلاء حول نَقاء رسالة الحجِّ التوحيدية، وسُمُوّ معانيها الرمزيّة، وكيف رأى هؤلاء ما سمّاه غيرهم وثنيَّةً أو تبعيةً، ومنهم:

١. **المستشرق البريطاني هاملتون جب** (Hamilton Gib) [(١)]، الذي أشار إلى ارتباط الرسول ﷺ بالأحناف، وأن الإسلام كان يُطلق عليه الحنيفية أوّلًا، ثم اكتسب فيما بعد مُسمّى الإسلام، كما أشار إلى وحدة الدعوة التوحيدية والأخلاقية بين الأديان، ورغم أنه ينسِبُ الإسلام إلى النبي محمد ﷺ بذاته، إلا أنه أكَّد على الفروق بين الدعوة المحمدية-كما يُسمّيها- وبين الوثنيَّة، فقال: «وكانت الثَّوْرة التي حقَّقها محمّد هي أنّه رفع فكرة الله، ونزَّهها عن عوالقها الطبيعية، ولم يكتفِ بأن يُسمِّيه الإله الأعلى، بل الواحد الصمد... وسمَا بالأُفُق الديني لدى العرب دُفعةً واحدةً... ولعل الحج إلى مكة أبرز الأمثلة، وأشهرها على التحوُّل بالرمزيّة الدينيّة، وأشدها نجاحًا وتوفيقًا ...إن الحجاج يؤدّون جميع شعائر الحج بتوَجُّهٍ خالصٍ لله، ولا ريب في أن ثَمَّة فروقًا في الفهم وفروقًا في السلوك بين الحُجّاج، كما وضح ذلك الرحَّالة ابن جبير، ولكن هذه الفروق لا تؤثِّر في وحدة الغاية الصحيحة»[(٢)].

(١) مستشرق بريطاني، توفي عام ١٩٧١م، من كتبه : إلى أين يسير الإسلام، واتجاهات حديثة في الإسلام، دَعَته جامعة هارفرد عام ١٩٥٥م ليكون أستاذًا بها، ثم مديرًا لمركز دراسات الشرق الأوسط فيها. انظر: موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي (ص١٧٤).

(٢) دراسات في حضارة الإسلام، هاملتون جب (ص٢٥١).

٢. **المستشرق مارسيل بوازار** (M.Poizar)[١]، الذي يؤكِّد وحدة المصدر السماوي لجميع الأديان، وأن الإسلام جاء متمِّمًا للرسالات السماوية، وهو منها وليس من الوثنيّات في شيء؛ حيث قال: «يدلُّ التاريخ على وجود حقيقة ثابتة مثاليّة في الحضارة الاسلامية التي كانت منذ بدئها ولا تزال مُتوجِّهة توجُّهًا كاملًا نحو الله، وهذه الظاهرة التي تغيب دائمًا عن الفكر والتحليل الغربي الحديث تُعطي للإسلام طابَعه المتميِّز بالدوام». ويقول: «لم يكن من ضمن رسالة محمد أن يُبطل ما أُنزِل مِن قبله؛ بل أن يصدِّقه، ناقضًا ما لحق الكتب السماوية من تحريف وانتهاك، وكُلِّف تطهير تعاليم الرُّسل السابقين عليهم السلام من كل مخالفة، والتوسُّع فيها وتتميمها؛ لتغدو ملائمةً للبشريّة جمعاء في كل زمان ومكان»[٢].

٣. سجَّل المستشرقون الذين أسلموا شهادات مُنصِفة عن نقاء رحلة الحج الرُّوحانية من الوثنيَّة، ومن أشهر هؤلاء الهولندي ليوبولد فايس (L. Weiss)[٣]، أو محمد أسد كما أسمى نفسه، والذي كتب عن رحلة الحج[٤]، وغيره ممَّن شرح الله صدورهم للإسلام. وهذا كله يؤكِّد تهافت تلك الدَّعاوى الاستشراقية، وضَعف شُبهة الوثنيَّة أمام براهين التوحيد المتواترة في الكتاب والسُّنّة في هذه الشَّعيرة العظيمة.



(١) مفكر وقانوني سويسري، أحد أشهر المفكِّرين الغربيين في القرن العشرين، وعاش فترة طويلة في بلاد عربية وإسلامية، من أشهر كتبه: «إنسانية الإسلام». انظر مقدمة الكتاب، ترجمة: عفيف دمشقية.

(٢) إنسانية الإسلام، مارسيل بوازار (ص٤٤ ومابعدها).

(٣) مستشرقٌ نمساوي توفي عام ١٩٩٢م، درس الإسلام، واهتم بتصحيح أخطاء المستشرقين عن الإسلام في مجلة الثقافة الإسلامية في حيدر آباد. انظر: المستشرقون، العقيقي (٢/ ٦٤٢).

(٤) انظر: الطريق إلى مكة، محمد أسد، وهو عن رحلة الحج التي خاضها المؤلف.

الخاتمة

بعد العرض السابق لدعاوَى المستشرقين وجوابها، يُمكن تلخيص **نتائج البحث** فيما يلي:

١. نَسَبَ بعض المستشرقين شُبهة الوثنيَّة إلى شعائر الحجّ، في كلٍّ من دائرة المعارف الإسلامية، ودائرة المعارف البريطانية.

٢. تناول الردُّ على هذه الدعاوَى عَددًا من الأُسُس تمثَّلت في كلٍّ من: الأساس العَقَديّ، والأساس العقليّ، والأساس التاريخيّ، والأساس المنهجيّ.

٣. وُجِدت بعض الآراء المُنصِفة حول خُلُوّ الحج من الوثنيَّة، من قِبَل بعض المستشرقين بشِقَّيهم: مَن أسلموا ومَن لم يُسلموا.

ومن **التوصيات** التي يحسُن التَّنبيه إليها في ختام هذه الدراسة ما يلي:

- توجيه الباحثين إلى بيان الأحكام الشرعيَّة والعَقَديّة على وجه الخصوص في إطار ثقافي مُعاصر لتجلِية الفرق بين الإسلام والوثنيَّة، سواءً في فريضة الحج أو الصلاة والصيام وغيرها من أمور الدين.
- بَذْل المزيد من العناية بكشف المغالطات المنهجيّة في الاستدلال واتخاذ المواقف وبناء الأفكار إجمالًا؛ لتكون مرحلةً سابقةً لتصحيح الكثير من الشُّبهات، سواءً في التعامل مع أقوال المستشرقين أو تلاميذهم من المتغرِّبين العرب وغيرهم.

فهرس المصادر والمراجع

١. **الإسلام**، هنري ماسيه، ترجمة: بهيج عثمان، ط١، عويدات للنشر، بيروت، ١٩٦٠م.

٢. **أصول البحث العلمي**، الفضلي، عبد الهادي، ط١، الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية ـ لندن، ١٤١٢هـ.

٣. **إنسانية الإسلام**، مارسيل بوازار، ترجمة: عفيف دمشقية، ط٢، دار الآداب، ١٤٠٣هـ.

٤. **التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم**، الكردي، محمد طاهر، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، ط١، دار خضر للطباعة والنشر-بيروت، ١٤٢٠هـ.

٥. **تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي**، المباركفوري، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم، ط٤، دار الفكر -بيروت، ١٤٢٤هـ.

٦. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري**، محمد بن جرير أبو جعفر، تحقيق :الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١، دار هجر، ١٤٢٢هـ.

٧. **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢، دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٨٤هـ.

٨. **الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح**، ابن تيمية الحراني، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، تحقيق :علي بن حسن وآخرون، ط٢، دار العاصمة، ١٤١٩هـ.

٩. **دائرة المعارف الإسلامية**، المراجعة والإشراف العلمي :أ.د. حسن حبشي وآخرون، ط١، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٤١٨هـ.

١٠. **دراسات في حضارة الإسلام**، هاملتون جب، ترجمة: إحسان عباس، ط٣، دار العلم للملايين-بيروت، ١٩٧٩م.

١١. **دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند**، الأعظمي، د. محمد ضياء الرحمن، ط١، مكتبة الرشد- الرياض، ٢٠٠١م.

١٢. **الدين: بحوث ممهدة لتاريخ الأديان**، دراز، محمد عبد الله، دروب للنشر والتوزيع .د.ت.

١٣. **السنن الكبرى**، البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، المحقق :محمد عبد القادر عطا، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة :الثالثة، ١٤٢٤هـ.

١٤. **السيرة النبوية في دائرة المعارف البريطانية**: دراسة تحليلية لما كُتب تحت مادة النبي محمد ورسالته، العمري، وليد، بحث مُقدَّم في ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالسنة والسيرة النبوية عام ١٤٢٥. نسخة إلكترونية.

١٥. **الصِّحاح تاج اللُّغة وصِحاح العربية**، الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد، تحقيق :أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، دار العلم للملايين – بيروت، ١٤٠٧هـ.

١٦. **صحيح البخاري**، البخاري، محمد بن إسماعيل، المحقق :محمد زهير الناصر، ط١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.

١٧. **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج، المحقق: نظر بن محمد الفاريابي، دار طيبة، ١٤٢٧هـ.

١٨. **القاموس المحيط**، الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، تحقيق :مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط٨، مؤسسة الرسالة بيروت – لبنان، ١٤٢٦هـ.

١٩. **قصة البيت الحرام**، الخرعان، محمد بن عبد الله، ط١، دار إشبيليا – الرياض ١٩٩٩م.

٢٠. **لسان العرب**، ابن منظور، محمد بن مكرم، ط٣، دار صادر – بيروت، ١٤١٤هـ.

٢١. **مجلة المنار**، رضا، الشيخ محمد رشيد، مطبعة المنار، القاهرة، ١٣١٥هـ.

٢٢. **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية–مصر، ٢٠٠٤م.

٢٣. **موسوعة المستشرقين**، بدوي، عبد الرحمن، ط٣، دار العلم للملايين، ١٩٩٣م.

٢٤. **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عثمان جمعة ضميرية، الناشر: مجمع الفقه الإسلامي بجدة، ١٤٢٩هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص	٢٥٨
الملخص باللغة الإنجليزية	٢٥٩
المقدمة	٢٦١
المبحث الأول: بعض دعاوى المستشرقين حول الوثنيَّة في شعائر الحج	٢٦٤
المبحث الثاني: أسس نقض دعاوى الوثنيَّة في شعائر الحج	٢٦٨
١. الأساس العقدي	٢٦٨
٢. الأساس العقلي	٢٧٢
٣. الأساس التاريخي	٢٧٥
٤. الأساس المنهجي	٢٧٧
المبحث الثالث: أقوال المنصفين من المستشرقين، في نقاء رسالة الحج التوحيدية من مظاهر الوثنيَّة المدعاة	٢٨٤
الخاتمة	٢٨٦
فهرس المصادر والمراجع	٢٨٧
فهرس الموضوعات	٢٨٩